

يبدو أوكونور متعسفا غاية التعسف فى التعامل مع النص ، اذ أن المقصود ليس وصف الحصان أو الدجاجة ، وإنما الملاحظة الدقيقة . ثمة نص آخر يفيدنا فى تفسيره ، فقد قدم فلوبر لصاحبه نظرية للنجاح الأدبى ذات ثلاث شعب : لاحظ . . ثم لاحظ . . وأخيرا لاحظ . وكان موباسان على مائدة اميل زولا حينما تكلم المضيف عن مبادئ الأدب الجديد الذى يكتبه ، فقال : « لنذكر أن علينا أن نقفز الى النجوم من سلم الملاحظة الدقيقة » . وقد وعى موباسان دروس العصر فكتب يقول : « ان على الكاتب أن يعرف كيف يكتشف فى الأمور العادية جمالها . لكن هذه الخاصية لا تظهر الا لمن كانت لديه قدرة للرؤية الى الأعماق . ولن تكون لهذه الرؤية جدوى دون ملاحظة مستمرة لكل شئ » . ولكل التفاصيل » (٣) .

والمقصود - بطبيعة الحال - ليس الدقة العلمية ، وإنما الفنية ، فعالم الحيوان يستطيع أن يصف حصان عربية ، أو دجاجة ، بدقة بالغة ، بيد أنه يظل عالما لا فنانا . ان البصيرة العلفية - على رأى ادجار آلان بو - تبحث عن الحقيقة الجميلة ، بينما البصيرة الفنية تبحث عن الجمال الحقيقى ، ان البصيرة العلمية تحلل التجربة الى عناصرها الجزئية ثم تجمعها فى نمط يعكس الحقيقة ، بينما تفعل البصيرة الفنية نفس الشئ بفارق هام بينهما ، وهو أن النمط الذى تخلقه يعكس الناحية الجمالية ، وبدون العقل الخيالى يكون العلم عاجزا أو كسيفا ، وبدون الخيال العقلى يكون الفن عاجزا أو كسيفا (٤) . والواقعية - كما يقول سيسيل دى لويس - تتضمن « العلاقة » ، ولذلك فان الفنان لن يتمكن من رؤية الأشياء كما هى على حقيقتها ، ما لم يكن دقيقا أيضا فى المشاعر التى تربط بها . الواقعية هى الحاجة الى التعبير عن العلاقة بين الأشياء ، ثم بين الأشياء والمشاعر . وتظل دقة الفنان هى الأكثر ضبطا ، لأن إبداع الفنان يتضمن كلا الموضوع والأحاسيس التى تربطه بالموضوع . كلا الحقائق ونفمة التجربة . والشئ لا يمكن أن يؤخذ منفردا ، ومنعزلا ، ومكتفيا ذاتيا . (٥) .

ونحن لا نستطيع أن نذهب الى حد القول أن كاتبنا فذا مثل أوكونور يجهل دور الملاحظة لكن يبدو أنه يقصرها على البشر دون بقية خلق الله . ثمة فقرة محيرة توهم بذلك ، اذ نراه عند تعرضه لقصة : « بيت يتليو » يقول : « ان خطاب القس ، مثل لاهوتية « أخت الرحمة » فى « بول دى سوييف » يلح على نقطة تكررت مرة بعد مرة حتى أجبرت تلميذ قصة قصيرة غيبيا مثلى أن يسأل عما حدث لحصان الغربة . اننى آخر انسان على وجه الأرض ينبغي أن يطلب منه التعرف على حصان الغربة ، ولكننى